

الإنسان في القرآن

حينما قال اللغويون : الإنسان يطلق على الذكر والأنثى من بنى آدم ، أرادوا تعريف ذلك الكائن الحي المسوى من لحم ودم ، وأعصاب وألياف ، ولكن كلمة « الإنسان » كسبت من استعمالها مع الأيام مجموعة من المعاني صار بها ذلك الإنسان « إنساناً » ، حتى إن العامة نفسها تقول : إن فلاناً رجل « إنسان » ، أى يتصف بصفات تجعله أهلاً لحمل ذلك الوصف الكريم الأصيل .

ولقد ذكر الراغب الأصفهاني في « مفردات القرآن » أن الإنسان سُمي بذلك لأن الله خلقه خلقة لا قوام له فيها إلا بأنس بعض أفراده إلى بعض ، ولذلك قيل : الإنسان مدني بالطبع ، من حيث إنه لا قوام لأبنائه إلا إذا كان بعضهم لبعض ، ولا يمكن لفرد منهم أن يقوم وحده بجميع أسبابه .

والإنسان القويم في الناس هو إنسان العقل والعلم والإيمان والعمل ، وهو شيء كبير في جوهره وأثره ، وإن بدا ضئيلاً في جسمه وحجمه ، ولم ينل كائن من المخلوقات ما ناله الإنسان من تشريف ، ولقد بدأت سلسلة

التشريف الإلهي للإنسان - كما حدثنا القرآن - بأن خلق الله بيده آدم عليه السلام ، وهو الأب الأول للإنسان ، وأطلق عليه اسم « الإنسان » لأنه علم له ، وكأنه النموذج الدال على سلالة وذريته ، فقال القرآن : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ » . وقال : « وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ » وقال : « الرَّحْمَنُ ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ » .

ولم يكف الله جل جلاله بأن يخبرنا ويحدثنا عن خلقه آدم كمظهر من مظاهر قدرته ، بل حدثنا أيضاً عن حكمته في هذا الخلق ، فإذا عنوان آخر من عناوين التشريف لهذا الإنسان ، وإذا هو مختاره خليفة في كونه ، وتغيب هذه الحكمة حيناً عن الملائكة الأطهار ، حتى يعلن الله عنها بعد قليل في حالة من الاحتفال والتكريم : « وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ؟ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » .

(سورة البقرة الآية ٣٠)

هذا الخليفة هو آدم أبو الإنسان ، أو الإنسان الأول ، فقد حسب الملائكة أن هذا الخليفة سيكون مثل من كان قبله في الأرض من أحياء ، ولكن الله صحح لهم فهمهم فقال : « إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » .

وإذن فالمشيئة العليا تريد - كما يقول بصير من المفسرين - « أن تسلم لهذا الكائن الجديد في الوجود ، زمام هذه الأرض ، وتطلق فيها يده ، وتكل إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين ، والتحليل والتركيب ، والتحويل والتبديل ، وكشف ما في هذه الأرض من قوى وطاقات ، وكنوز

وخامات ، وتسخير هذا كله - بإذن الله - في المهمة الضخمة التي وكلها الله إليه .

وإذن فقد وُهب هذا الكائن الجديد من الطاقات الكامنة ، والاستعدادات المذخورة ، كفاء ما في الأرض من قوى وطاقات ، وكنوز وخامات ، وُهب من القوى الخفية ما يحقق المشيئة الإلهية .
وإذن فهناك وحدة أو تناسق بين النواميس التي تحكم الأرض ، وتحكم الكون ، والنواميس التي تحكم هذا المخلوق وقواه وطاقاته ، كي لا يقع التصادم بين هذه النواميس وتلك ، وكى لا تتحطم طاقة الإنسان على صخرة الكون الضخمة .

وإذن فهي منزلة عظيمة منزلة هذا الإنسان ، في نظام الوجود على هذه الأرض الفسيحة ، وهو التكريم الذي شاء له خالقه العظيم .
هذا كله بعض إحياء التعبير العلوي للجليل : « إني جاعل في الأرض خليفة » . حين نتملاه اليوم بالحس اليقظ والبصيرة المفتوحة ، ورؤية ماتم في الأرض على يد هذا الكائن المستحلف في هذا الملك العريض ! .

• • •

وإنسان القرآن إنسان قد أفاض عليه ربه نعمة العلم ، وبالحا من نعمة ، وتزداد قيمة هذه النعمة حين نتذكر أن الله قد أفاض عليه هذه النعمة في فجر ميلاده ، والحياة على الأرض لم تبدأ بعد : « وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ

غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُدْبِرُونَ وَمَا كُنْتُمْ تُكْتُمُونَ »

(سورة البقرة : ٣١ - ٣٣) .

وما أروع أن يقدم الله جل جلاله هذا الإنسان الذي خلقه بيده ، على الملائكة ، ويعلمه ما لا يعلمون ، حيث أودع في نفسه علم جميع الأشياء من غير تحديد ولا تعيين ، وعلمه كل شيء يزينه أن يعلمه ، وطلب من الملائكة أن يذكروا علمهم ، فإذا هو لا يبلغ مبلغ العلم الموهوب لآدم أبي الإنسان .

وتكون النتيجة الطبيعية لهذا التفضيل أن يُقَرَّبَ بها الملائكة ويعترفوا ، وأن يعبروا عن هذا الاعتراف بإظهار فضل آدم عليه كما أمر ربهم وربهم : « وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ » . (الآية ٣٤ من سورة البقرة) .

وهكذا بعد أن ظهر فضل آدم بالعلم ، أراد الله أن يظهر تكريمه فأمر الملائكة بأن يسجدوا لآدم سجود إظهار للفضل ، لا سجود عبادة ، فأطاعوا جميعاً وكانوا منصفين ، إلا إبليس فسق عن أمر ربه وعصى ، فكان من المجرمين الملعونين !

وسجد الملائكة للإنسان ممثلاً في أيه الأول - آدم - يعد أروع صورة للتكريم ، فقد ارتفع الإنسان بهذا التكريم فوق الملائكة ، وهم عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ولقد آتاه الله قبل ذلك فضل الخلق الإلهي له ، وفضل نفخ الروح فيه ، وبعد ذلك فضل العلم والمعرفة .

وأكد القرآن الكريم كثيراً وطويلاً نعمة العلم هذه ، فقال تلك الآيات : « عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » . (سورة العلق ٥) .

« وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا » .

(سورة النساء ١١٣) .

« وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا » . (سورة طه ، الآية ١١٤) .

« يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » .

(سورة المجادلة . الآية ١١) .

« قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » . (الزمر - ٩) .

« كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » . (سورة الأعراف - ٣٢) .

« إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » . (سورة فاطر ٢٨) .

• • •

وإنسان القرآن العالم يجعل الله له رائداً وقائداً هو العقل قرين العلم ،

ولذلك تكررت مادة العقل ما يقرب من خمسين مرة في كتاب الله الحكيم ،

مثل : أفلا تعقلون . لعلمكم تعقلون . إن كنتم تعقلون . أفلم تكونوا تعقلون ؟

وما يعقلها إلا العالمون . إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . . . إلخ إلخ .

ولقد روى الحكيم الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : أتني قوم

على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم حتى بالغوا ، فقال النبي صلى الله

عليه وسلم : كيف عقل الرجل ؟

فقالوا : نخبرك عن اجتهاده في العبادة وأصناف الخير ، وتسالنا عن

عقله ؟ !

فقال صلى الله عليه وسلم : إن الأحمق يصيب بجهله أكثر من فجور

الفاجر ، وإنما يرتفع العباد غداً في الدرجات الزلني من ربهم على قدر عقولهم .

وعن عمر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما اكتسب

رجل مثل فضل عقل يهدي صاحبه إلى هدى ، ويرده عن ردى ، وما تم

إيمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت يا رسول الله ، بم يتفاضل الناس

في الدنيا ؟ .

قال : بالعقل .

قلت : وفي الآخرة ؟

قال : بالعقل .

قلت : أليس إنما يجزون بأعمالهم ؟

قال صلى الله عليه وسلم : وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم الله عز وجل

من العقل ، فبقدر ما أعطوا من العقل كانت أعمالهم ، وبقدر ما عملوا

يجزون .

• • •

وإنسان القرآن إنسان يعلن ربه التكريم له على الملأ ، ويسجله في

كتاب يبقى بقاء الزمن ، ويدوم دوام الدهر ، ويعدد مظاهر هذا التكريم

بقوله : « ولقد كرّمنا بني آدم ، وحملناهم في البرّ والبحر ، ورزقناهم من

الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » .

(سورة الإسراء الآية ٧٠) .

ويهب الله جل علاه الإنسان نفساً تنطوي على خصائص وقوى تحار

فيها العقول ، ويطول حولها البحث ، حتى يقول القرآن : « وفي أنفسكم

أفلا تبصرون » . (سورة الداريات الآية ٢١) . ويشير إلى ذلك الشاعر

فيقول للإنسان .

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وإنسان القرآن إنسانٌ عملٍ موصول وحركة دائبة ، وهو لا يعمل مطلق

عمل ، بل يطالبه ربه بأن يكون عمله صالحاً ، ولذلك تكررت عبارة « آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » عشرات المرات في القرآن .

ويقول القرآن فيما يقول : « وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى » . (سورة الكهف الآية ٨٨) ، ويقول : « وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا » (سورة فصلت الآية ٣٣) ويقول : « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ » (سورة الجاثية ١٥) ويقول : « قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ » (الأنعام الآية ١٣٥) ويقول : « وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ » (التوبة ١٠٥) . ويقول : « وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ »

(سورة يونس ، الآية ٦١)

° ° °

وإنسان القرآن إنسان كبير كبير بفضل الله وإنعامه وتوجيهه .
إنه كبير صلح ليكون خليفة لله في الأرض كما رأينا: « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة » .

إنه كبير صلح ليكون منه أنبياء ورسول : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .
إنه كبير صلح منه - وهو رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم - الذي مكنته ربه من تحطيم المسافات والحواجز كما رأينا في حادث الإسراء والمعراج . والقرآن يقول في أول سورة الإسراء :

« سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » .

ويقول : « عِلْمُهُ شَدِيدُ الْقُوَى . ذُو مِرَّةٍ فَسْتَوَى . وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ، ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى . فَكَانَ قَبًا قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (سورة الحجر من ٥ ٩) .

إنه كبير صلح لكل ما أظهر الله على يديه ، ومكنه من اختراعه وابتكاره
وتسخيره ، ومن كشف أسرار الطبيعة التي جعلها الله أمام الإنسان قرآناً
منظوراً : « قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » (سورة يونس الآية ١٠١)
وهوب الله الإنسان في هذا المجال قدرة هائلة على المسير ، وعلى التفكير ،
وعلى التدبير ، والله هو صاحب الفضل العظيم .

• • •

والإنسان كما يصوره القرآن حي عاقل شاعر حساس مسئول محاسب
على ما يفعل ، مجزى بما يعمل ، « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ
يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » (سورة الزلزلة ٧ ، ٨) ، وهذا يعطى الإنسان
احتراماً وشخصية وكياناً له استقلاله وحرية وتبعته ، ولذلك يقول الكتاب
الحكيم : « بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ، وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ » (سورة القيامة
١٤ ، ١٥) فنفس الإنسان - كما يقول أهل التفسير - موكولة إليه تابعة
له ، من واجبه أن يرشدها ويسدد خطاها ، وأن يباعدتها عن الشر قدر
طاقته وإمكانه ، وأن يهديها إلى الخير ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وهو
مسئول عنها ، ولن يقبل الله منه عذراً إذا فرط في صيانة هذه النفس
وتوجيهها نحو سبيل الله .

وقد منحه الله فرصة التمييز والاختيار : « إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا
وَإِمَّا كَفُورًا » (سورة الإنسان ٣) ، « وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا
وَتَقْوَاهَا ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » (سورة الشمس
الآيات من ٧ - ١٠) ، « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ . وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ،
وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » . (سورة فصلت ٤٦) .

والإنسان في تصوير القرآن مطلوب منه النهوض بتبعته الفردية ،

يتحملها ويؤخذ بها ، وهو مخلوق راشد رشيد ، وكل جزء من سعيه محصى عليه مراجع فيه ، وسينال هذا الإنسان جزاء سعيه وافياً بلا نقص ولا هضم ، يقول القرآن : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ، وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يُرَى ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى » (سورة النجم الآيات ٣٩ - ٤١) .
ومن هنا يفجر القرآن في حياة الإنسان ينابيع الإدراك والشعور والوجدان ، ويحرك منه أوتار القلب واللب والروح والنفس ، ليتفكر ويعلم ، ويفقه ويعتبر ، ويحشى ويتعظ ، فيتحدث كثيراً على النمط التالي :

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ » (سورة النور ٤٤) .

« لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لَأُولِي الْأَلْبَابِ » (سورة يوسف ١١١) .

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَحْشَى » (سورة النازعات ٢٦) .

« وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَاسٍ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » (الحشر ٢١) .

« قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ » (الأنعام ٩٨) .

« وَفُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » (التوبة ١١) .

ومن هذا الوادى أن القرآن المجيد جعل حياة الإنسان قائمة على زوجين ، هما المرأة والرجل ، ولم يجعل العلاقة القائمة بين الزوجين مقصورة على لذة الجنس ، أو متعة الحس ، أو شهوة النفس ، بل جعل عماد هذه العلاقة مسكينة وطمأنينة وألفة قلوب ، فقال : « هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا » (الأعراف ١٨٩) . وقال : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » (الروم ٢١) .

• • •

ومن عناية القرآن الكريم بالإنسان أن القرآن حذر الإنسان عدوه

اللدود ونخصمه العنيد ، وهو الشيطان المرید ، وأكد القرآن التحذير ، حتى لا يبقى للإنسان عذريته إذا وقع في شرك هذا الشيطان .

إن القرآن يتحدث هنا على هذا النحو .

« إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ » (سورة يوسف ٥) .

« وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ،

(نساء ١١٩) .

« يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ »

(الأعراف ٢٧) .

« وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »

(الأعراف ٢٠٠) .

« إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ » (الإسراء ٥٣) .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ » (النور ٢١) .

« وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا » (الفرقان ٢٩) .

• • •

ونحن لا ننسى - ولا ينبغي لنا أن ننسى أن القرآن قد نسب إلى الإنسان

كثيراً من السيئات ، وهذه أوصاف خاصة بالإنسان الذي أعرض عن ربه ، وانحرف عن طريقه . واستجاب لنزعات الشيطان ، ولو احتفظ الإنسان بفطرته الأصلية ، واستمسك بالإيمان والعمل الصالح والحق ، والصبر في طريق هذا الحق ، لما استحق سيئاً من هذه الصفات التي يشوه الإنسان بها فطرته .

وهذا بدليل قول الله سبحانه : « والعصر ، إن الإنسان لفي خسر ،

إلا الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر . »

على هذا الأساس نستطيع أن نفهم المراد بأمثال هذه الأوصاف المنسوبة إلى الإنسان بعد انحرافه واعتسافه :

« إِنَّ الْإِنْسَانَ لَطُلُومٌ كَفَّارٌ » (إبراهيم ٣٤) .

« وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا » (الإسراء ١١) .

« وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا » (الإسراء ١٠٠) .

« وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا » (الكهف ٥٤) .

« إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا » (الأحزاب ٧٢) .

« إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا » (المعارج ١٩) .

« إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ » (العاديات ٦) .

• • •

على أن القرآن المجيد - وهو كتاب الرؤوف الرحيم - قد استبقى روح الترفق في خطاب الإنسان ، حتى في مواقف المحاسبة والمعاتبه والمراجعة ، فجاءت طريقة الخطاب شفافةً مطلقةً ، في مثل قول الله تبارك وتعالى : « يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَّلَكَ ، فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ » (الانفطار ٦ - ٨) .

يعلق الأستاذ الإمام محمد عبده على هذا النص الإلهي الكريم فيذكر أن الله خاطب الإنسان بقوله : « يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ » ولم يقل : أيها المخلوق ، أو العبد . وفي الإنسان معنى العاقل المتفكر ، الذي أوتى من قوة ، وبسطة القدرة في العمل ، ما لا حدَّ له ينتهي إليه ، حتى صار بذلك أفضل المخلوقات وأكملها ، ونال بفضل ما أوتيته قوة السلطان عليها ، ولم يكن ذلك كله إلا منحةً من ربه الكريم ، الذي أحسن كل شيء خلقه .

وهذا الكريم إنما يليق به أن يوفى كلَّ مرتبة من الوجود حقها ، فالإنسان

الذى خص بهذه المترلة من الكرم الإلهى ، لا ينبغي أن يعيش كما يعيش سائر الحيوان ، ويموت كما يموت الوحش وصغار الدر ، وإنما يتساوى مع بعضها فى الحياة الأولى ، من حيث قصر المدة وسرعة الفناء . ولكن الذى يليق بعقله ، وقوة نفسه الناطقة ، أن تكون له حياة أبدية لا حد لها ، ولا فناء يأتى عليها .

وإذا رجعنا إلى تفسير الآيات السابقة فى كتاب « ظلال القرآن » نجد هذا التصوير البيانى الأدبى لكلمات النص الربانى المعجز :

« إن هذا الخطاب : « يا أيها الإنسان » ينادى فى الإنسان أكرم ما فى كيانه ، وهو « إنسانيته » التى بها تميز عن سائر الأحياء ، وارتفع إلى أكرم مكان ، وتجلى فيها إكرام الله له ، وكرمه الفائض عليه .

ثم يعقبه ذلك العتاب الجميل الجليل : « ما عرك بربك الكريم » يا أيها الإنسان الذى تكرم عليك ربك راعيك ومريك ، بإنسانيتك الكريمة الواعية الرفيعة . يا أيها الإنسان ، ما الذى عرك بربك ، فجعلك تقصر فى حقه ، وتهون فى أمره ، ويسوء أدبك فى جابه ، وهو ربك الكريم ، الذى أغدق عليك من كرمه وفضله وبره ، ومن هذا الإغداق إنسانيتك التى تميزك عن سائر خلقه ، والتى تميز بها وتعقل وتدرك ما ينبغى ومالا ينبغى فى جانبه ؟

ثم يفصل شيئاً من هذا الكرم الإلهى ، الذى أجمله فى الداء الموحى العميق الدلالة ، المشتمل على الكثير من الإشارات المضمرة فى التعبير . يفصل شيئاً من هذا الكرم الإلهى المغدق على الإنسان المتمثل فى إنسانيته التى ناداه بها فى صدر الآية . فيشير فى هذا التفصيل إلى خلقه وتسويته وتعديله . وهو القادر على أن يركبه فى أى صورة وفق مشيئته . فاختياره

هذه الصورة له منبثق من كرمه وحده ، ومن فضله وحده ، ومن فيضه المغدق على هذا الإنسان الذى لا يشكر ولا يقدر ، بل يعتر ويسدر :

« يا أيها الإنسان ما عرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك » ؟ !
 إنه خطاب يهز كل ذرة في كيان الإنسان حين تستيقظ إنسانيته ، ويبلغ من القلب شغافه وأعماقه ، ورببه الكريم يعاتبه هذا العتاب الجليل ، ويذكره هذا التذكير الجميل وهو سادر في التقصير ، نسي الأدب في حق مولاه الذى خلقه فسواه فعدله .

إن خلق الإنسان على هذه الصورة الجميلة السوية المعتدلة ، الكاملة الشكل والوظيفة ، أمر يستحق التدبر الطويل ، والشكر العميق ، والأدب الجم ، والحب لربه الكريم الذى أكرمه بهذه الخلقة تفضلاً منه ورعاية ومنة ، فقد كان قادراً أن يركبه في أى صورة أخرى يشاؤها ، فاختار له هذه الصورة السوية المعتدلة الجميلة .

وإن الإنسان لمخلوق جميل التكوين ، سوى الخلقة ، معتدل التصميم ، وإن عجائب الإبداع في خلقه لأضحخ من إدراكه هو ، وأعجب من كل ما يراه حوله :

وإن الجمال والسواء والاعتدال ليبدو في تكوينه الجسدى ، وفي تكوينه العقلى ، وفي تكوينه الروحى سواء ، وهى تتناسق في كيانه في جمال واستواء » ! !

• • •

ويقول القرآن الكريم عارضاً كرامة الإنسان القرآنى السوى العالى ، وخيبة الإنسان الشيطانى الهاوى ، وطريق النجاة والوقاية للإنسان الوفى لعهد مع ربه ، فيقول سبحانه : « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ،

ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ
غَيْرٌ مَمْنُونٍ « (سورة التين من ٤ ٦) .

إن الله تبارك وتعالى قد خلق كل شيء بإحسان وإتقان ، ولكنه مع هذا
كرر النص في كتابه على أنه سبحانه أحسن خلق الإنسان . ولا شك أن
هذا يدل على فضل مزية للإنسان ، ومزيد من التكريم له . وهذا يرمز إلى
أن الإنسان له عند ربه شأن خاص ، لأن الله أبدع تكوينه في ناحية الحس
والنفس ، وناحية العقل والروح ، وهذا الإنسان يرتفع شأنه في حمى ربه
إلى أعلى عليين ، حين يحافظ على سلامة فطرته وطهارة روحه ، وتوطلد
إيمانه .

ولكن الله المنتقم ممن يستحق الانتقام يرد ذلك الإنسان إلى الحضيض ،
وإلى أسفل سافلين ، إذا ضل أو أضل ، فيهبط إلى مستوى البهائم والأنعام ،
لانهرافه واعتسافه ، بعد أن كان في مستوى الملائكة بنور إيمانه وسمو يقينه ،
ولا يسلم من هذا الانتكاس إلا أهل الإيمان والعمل الصالح ، فهؤلاء لهم
ثوابهم العظيم ، وأجرهم الطيب الموصول غير المقطوع : « فلهم أجر غير
ممنون » .